الإيمان بوجود الملائكة والشياطين وأثره في تعزيز المراقبة الذاتية

ذ. عبد السلام الأحمر

يكتسي الإيمـان بوجـود الملائكة والشياطين أهمية كبرى في دين الله، اعتبارا لـدور الملائكة الفعال في كثير من الظواهر والأعمال الشديدة الصلة بالمسؤولية الإنسانية على الأرض، كما أن دور الشيطان في إغواء بني آدم وجرهم إلى الفسوق والعصيان يتصل هو الآخر بظاهرة الابتلاء التي كتبت على الإنسان

الإيمان بوجود الملائكة وعلاقته بمسؤولية الإنسان

أولا: الطبيعة الملائكية

الملائكة كائنات روحانية لها قدرات هائلة، فطرها الله على الطاعة والعبادة والخضوع المطلق، ووكل بها أعمالا كثيرة في الكون عامة وفي عالم البشر خاصة، وزودها سبحانه بطاقات وخصائص تناسب المهام الجسام التي كلفها الله بها، كالقدرة على الانتقال بسرعة فائقة، واختـراق الحـواجـز، والتشكل في صور مختلفة، وتدمير القرى، وتسوية الجبال، وقتال الكفار ونصر المومنين، والإتيان بالمعجزات.

وما من حدث يقع في ملكوت الله إلا وتتدخل فيه الملائكة استجابة لأمر الله، والذي يتناوله هذا المبحث من أفعال الملائكة، هو ما له ارتباط مباشر بالمسؤولية الإنسانية، إذ من المعلوم أن الملائكة هم الذين يبلغون الرسالات السماوية إلى المرسلين ويعلمونهم إياها، ويحصون أفعال الإنسان ويحفظونها، ويحرسون المومنين من الشياطين ويحمونهم من تلبيساتهم وجميع الأضرار الصادرة عنهم.

ثانيا: مهام الملائكة وتقوية المراقبة على النفس

يعتبر الإيمان بالملائكة ركن من أركان الإيمان الستة، حيث يرد ذكر الملائكة مقدما على ذكر الكتب والرسل، لتوقف الإيمان بالكتب المنزلة وبالرسل المبعوثين بها على الإيمان بالملائكة، الذين كلفوا بتبليغها عن الله إلى رسله من البشر عبر الزمان والمكان، قال تعالى: ﴿**ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيئين**﴾ [البقرة: 177].

وفي حديث جبريل (قال فأخبرني عن الإيمان، قال أن تومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، تومن بالقدر خيره وشره)[1].وهكذا يرتبط الإيمان بوجود الملائكة ارتباطا وثيقا بتأكيد مسؤولية الإنسان التي هي المضمون العام للكتب السماوية، والمغزى العميق للإيمان بالله تعالى، فإذا كان جبريل هو صاحب الوحي الذي عرف بهذه المهمة، فإن ملائكة كبارا مثله قد وكلوا بمهام مرتبطة كذلك بالمسؤولية الإنسانية مثل عزرائيل المكلف بقبض الأرواح، وإسرافيل المكلف بالنفخ في الصور يوم القيامة.

ويتولى ملائكة آخرون القيام بأعمال تتعلق من قريب أو من بعيد بمسؤولية الإنسان منذ ولادته وإلى وفاته، بل إن ملكا يكلف بنفخ الروح في الجنين قبل الولادة بأشهر (*).

---

1. أخرجه مسلم.

* فعن ابن مسعود (ض) قال: حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح... متفق عليه).

وإذا بلغ الطفل الحلم وكل به ملكان عن يمينه وشماله يحصيان عليه أعماله الحسنة والسيئة، ويسجلانها في صحائفه، التي تعرض عليه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ [ق: 16- 18]، أخرج أبو نعيم والديلمي عن معاذ بن جبل مرفوعا أن الله لطف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجدين(*)[1] وجعل لسانه قلمهما وريقة مدادهما[2].

فالإحساس بمراقبة الله للعبد يتقوى أكثر عندما يعلم بأن ملكين ملازمان له بالليل والنهار يرقبان حركاته وسكناته ويكتبان كل ذلك في سجل مفتوح يسع العمر كله.

إن علم الله بأحوال الناس لا يحتاج إلى وسائط ولكن قد يضعف هذا الاعتقاد في إحساس العبد ووعيه لسبب أو آخر. أما إذا أيقن بأن حارسين غير مرئيين ليس لهما شغل يشغلهما عن متابعة أفعاله وإحصائها عليه، ملازمة ذاته كأنهما جزء منهما، فإن أثر ذلك واضح في تحقيق مراقبته لنفسه واحترازه من المعاصي وإقدامه على العمل الصالح، لأن الحارس الذي يرى بالعين قد تتأتى فرصة استغفاله أو مساومته أو استعطافه، لكن الذي لا يرى ولا يحس وجوده، إنما ينفع معه مداومة اليقظة وملازمة الاستقامة في كل حال، ولعل هذا من حكم الله في تسخير ملائكته لمهمة حفظ الأعمال وتدوينها، فمهمة الملكين هي كتابة الأعمال التي يشملها التكليف الشرعي دون غيرها، أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله: "ما يلفظ...عنيد" قال: إنما يكتب الخير والشر، لا يكتب يا غلام أسرج الفرس ويا غلام أسقني الماء[3].

ومما يجعل الإيمان بالملكين الكاتبين فعالا في تحقيق مراقبة نفسية شاملة وعميقة، كونهما يطلعان على ما يدور بفكر الإنسان وما يتجه إليه قصده فيثبتانه في صحيفته باعتباره

---

1. الأضراس.
2. الدر المنثور، السيوطي، ج 7، ص: 593.
3. نفسه.

من أفعال القلب التي يواخذ بها ويحاسب عليها. وهذا ما يفهم من قوله تعالى: ﴿**ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد**﴾ [ق: 16- 18]، وقوله تعالى: ﴿**أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى، ورسلنا لديهم يكتبون**﴾ [الزخرف: 80]، وقوله تعالى: ﴿**كلا بل تكذبون بالدين وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾ [الانفطار: 9- 11].

والتكذيب بالدين قد يكون قولا وعملا بارزا وقد يكون حالة قلبية خفية، وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: "إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بفعلها كتبها الله له سيئة واحدة"[1]. قال الحافظ بن حجر: "ومعنى قوله (كتبها له) أمر الحفظة بكتابتها، واستدل على ذلك بحديث أبي هريرة رضي الله عنه "إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها) ثم قال: وفيه دليل على أن الملك يطلع على ما في قلب الآدمي إما بإطلاع الله إياه، أو بأن يخلق له علما يدرك به ذلك"[2].وأخرج مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: "قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة ـ وهو أبصر به ـ فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جراي"[3].

وإلى جانب ما يكون للإيمان بوجود ملائكة شاهدين على الإنسان من أثر كبير في مراقبة نفسه، فإن له أثرا آخر في حمله على ملازمة النظافة في ملبسه ومسكنه حتى لا يؤذي جلساءه

1. أخرجه الشيخان.
2. فتح الباري، ابن حجر، ج 11، ص: 325.
3. صحيح مسلم، الإيمان، باب بيان تجاوز الله تعالى عن حديث النفس.

من الملائكة، ودفعه إلى تحسين سلوكه استحياء من الملائكة الذين يحضرون مجامع الإيمان والذكر والعبادة.

الإيمان بوجود الشياطين

يدخل الإيمان بوجود الشياطين في إطار الإيمان بالغيب، شأنهم في ذلك شأن الملائكة، كما أن معرفة الإنسان بالشيطان ضرورية لارتباطها بطبيعة المسؤولية التي أنيطت ببني آدم، والتي تقوم على مخالفة الهوى والشيطان وإخلاص العبودية لله وحده.

أولا: الطبيعة الشيطانية

الشيطان مخلوق من نار لقوله تعالى: ﴿**قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين**﴾ [الأعراف: 12]. وسمي الشيطان شيطانا لبعده عن الحق وتمرده، وقيل إن شيطانا مأخوذ من شاط يشيط إذا هلك فالنون زائدة، وشاط إذا احترق، وشيطت اللحم: إذا دخنته ولم تنضجه، واشتاط الرجل إذا احتد غضبا، ونقول تشيطن فلان إذا فعل أفعال الشياطين[1]. والشياطين من طائفة الجن وأبوهم إبليس الذي رفض السجود لآدم فغوى: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا، إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بيس للظالمين بدلا**﴾ [الكهف: 50]. قال ابن عباس رضي الله عليه وسلم متحدثا عن إبليس: "وكان اسمه عزازيل وكان من أشرف الملائكة، وكان من ذوي الأجنحة الأربعة ثم أبلس بعد"، وقال سعيد بن جبير: "إن الجن سبط من الملائكة خلقوا من نار وإبليس منهم، وخلق سائر الملائكة من نور"[2]. وهذا القول أقرب لمضمون الآيات القرآنية الواردة في الموضوع وأجمع لدلالاتها المتعارضة، فإبليس هو رأس الشياطين وهو المتمرد ويجمع على أباليس وأبالسة[3]، وللشيطان قدرات هائلة يتمكن بها من إغراء الآدميين وإضلالهم واستدراجهم لمخالفة شرع الله وتعاليمه الهادية، ﴿**قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك**

1. انظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 1ص: 64.
2. المرجع السابق، ج 1ص: 202.
3. المعجم الوسيط.

من المنظرين قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ [الأعراف: 14- 17] فهذه الطبيعة الشيطانية تجعله يقوم بدور خطير في حياة الإنسان بالعمل دائما على صده عن سبيل الله بكل ما أوتي من مكر وقدرة على الوسوسة والغواية.

ثانيا: الغواية الشيطانية والمراقبة النفسية

يمكن إبراز أثر الإيمان بوجود إبليس في تقوية المراقبة الذاتية من خلال التوضيحات الآتية:

1. العداوة بين إبليس وبني آدم

كانت بداية العداوة بين إبليس وبني آدم عندما خلق الله آدم عليه السلام وطلب من الملائكة أن يسجدوا له، وكان معهم إبليس فرفض امتثال أمر الله، مسوغا عصيانه بأفضليته المزعومة على آدم المخلوق من طين، وهو المخلوق من نار، قال تعالى: **﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾** [الأعراف: 11- 12- 13]، واعتبر إبليس وذريته أعداء لقبيله لما تسببوا لهم من اللعنة والعذاب الشديد، بدل أن يرد سبب ذلك إلى نفسه، واستهانته بأمر الله تعالى، ويعجل بالتوبة والاستغفار، فصار بذلك ضليعا في الظلم والتمرد والعصيان، والحقد المستديم لآدم وبنيه، **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال آسجد لمن خلقت طينا قال أرايتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا، قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا﴾** [الإسراء: 61- 62- 63].

فإيمان الإنسان بوجود هذه العداوة من إبليس لآدم وبنيه، كفيل بأن يولد في النفس الآدمية المومنة عداوة أشد لإبليس وجنوده، وبغضا عارما وكراهية متنامية، لأنه عصى الرحمن، ولأنه

رفض السجود لآدم تكبرا وعنادا، ولأنه أخرج آدم أبا البشر وزوجته حواء من الجنة وأقسم أن يعمل بما أوتي من سلطان وكيد وخبث على إبعاد بني آدم عن الجنة والزج بهم في نار جهنم.

إن كل هذا كاف ليستفز القلب، ويوقظ الوعي، وينبه على تربص هذا العدو الألد بالإنسان، دون أن تعييه المحاولات، أو تعوزه الحيل والإمكانيات، ولا سبيل لإنهاء هذه العداوة إلا على حساب سعادة الإنسان، عندما يسلك مسلك الضلال والفساد.

قال تعالى: ﴿**إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير**﴾ [فاطر: 6]، فمن تنكب طريق الإيمان، وقع في حبائل الشيطان، وحرم سعادة الدنيا والآخرة، وصار من الأخسرين الغافلين الذين صدق عليهم ظن إبليس.

2. ملازمة الشيطان لذات الإنسان

لقد تضافرت الأدلة من القرآن والسنة على أن الشيطان يلازم ذات الإنسان جسما وقلبا، ويندمج اندماجا فيها كأنه طرف منها، قال تعالى: ﴿**قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس**﴾[1]، والمقصود بالصدر في السورة القلب، فقد أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله (الوسواس الخناس) قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس[2] والشيطان لا يلزم جهة معينة من الذات الآدمية وإن كانت وسوسته ترتكز في القلب. فقد جاء في الحديث الصحيح (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[3]، فظاهره يدل على أن الشيطان يتحرك داخل الجسد بحرية كبيرة وربما سمحت له خواصه النوعية بأن تتركز ذاته في جانب من الذات الإنسانية أو تنتشر

1. سورة الناس، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا: وإياك يا رسول الله قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير) مسلم صفة القيامة، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس).
2. الدر المنثور، السيوطي، ج 8، ص: 694.
3. صحيح البخاري: الأحكام باب موعظة الإمام للخصوم، وبدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، والاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه.

فيها وتتخللها كلها، ومن الأدلة على أن الشيطان قد ينحصر في موضع محدد من الجسد، ما ورد في حديث أبي هريرة قال: (إذا استيقظ ـ أراد أحدكم من منامه فتوضأ فليستنثر ثلاثا فإن الشيطان يبيت على خيشومه)[1]، وأورد الإمام القرطبي ما رواه شهر بن حوشب عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: "سألت الله أن يريني الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته، يداه في يديه، ورجلاه في رجليه، ومشاعبه في جسده، غير أن له خطما كخطم الكلب، فإذا ذكر الله خنس ونكس، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه" ثم قال الإمام القرطبي: "فعلى ما وصف أبو ثعلبة أنه متشعب في الجسد، أي في كل عضو منه شعبة"[2].

فإبليس إذن ممكن له في نفس الإنسان يصول فيها ويجول ويهمس ويوسوس في قلبه، ولقد بين الشرع حقيقة الوسوسة ومدى تدخل إبليس في الخواطر والإرادات والأفكار حين تكونها في القلب، بل قد يقف وراء نشأتها ابتداء كما يشارك في تطورها وتوجيهها إلى ما يخالف هدى الله. قال تعالى: ﴿ **وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم**﴾[3]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته)[4]، وعن صفية بنت حيي قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفا، فأتيته أزوره ليلا، فحدثته ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني ـ وكان سكنها في دار أسامة بن زيد ـ فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسرعا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: على رسلكما، إنها صفية بنت حيي فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال:

---

1. صحيح البخاري، بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.
2. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج 20، ص: 180.
3. الحج 25، أورد ابن كثير في تفسير الآية، ج 3، ص: 230أنه لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (أفريتهم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) ألقى الشيطان عندها كلمات (وإنهن لهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لهي التي ترتجي)، فوقعت في قلب كل مشرك.
4. صحيح البخاري، بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا أو قال شيئا) [1]، وعن أبي هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: (إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط×، فإذا قضى أقبل، فإذا ثوب بها أدبر، فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول اذكر كذا وكذا، حتى لا يدري أثلاثا صلى أو أربعا، فإذا لم يدر أثلاثا صلى أو أربعا سجد سجدتي السهو)[2].

فهذه الأحاديث تكشف عن توغل الشيطان في أعماق النفس البشرية وقدرته على التدخل في النوايا والخواطر والإحساس.

3. أساليب الشيطان في الغواية

يستطيع الشيطان أن يجعل الإنسان يذكر شيئا وينسى شيئا آخر ويغفل عما فيه رضي الله تعالى من الطاعات، قال تعالى في قصة موسى وفتاه ﴿**قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره**﴾ [الكهف: 63]. وقال تعالى: ﴿**وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر به**﴾ [يوسف: 42].

ولإبليس مداخل كثيرة إلى قلب الإنسان هي نوازعه وأهواؤه وعيوبه وأحواله، بحيث إنه يلبس على النفس ويغرها انطلاقا من الخلل الموجود فيها، قال ابن الجوزي: "التلبيس إظهار الباطل في صورة الحق، والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحا والرديء جيدا، وسببه وجود شبهة أوجبت ذلك، وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر ما يمكنه، ويزيد تمكنه منهم ويقل، على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم"[3].

ومن مداخل إبليس أن يميل بالإنسان عن حد الاعتدال الشرعي، فإن آنس منه ميلا إلى

---

1. صحيح البخاري، الاعتكاف، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه.

×. ضراط: صوت يملأ السمع ويمنع عن السماع.

2. نفسه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

3. تلبيس إبليس، للحافظ جمال الدين عبد الرحمن ابن الجوزي، المتوفى 597هـ، دار الكتب العلمية بيروت د ـ ت ص: 31.

الزيادة في أمر زين له ذلك حتى يقع به في الإفراط المخرج عن وسطية الشرع، وإن آنس منه ميلا إلى النقصان حبب إليه ذلك حتى يصل به إلى التفريط المذموم، وهذا واضح من وصف القرآن لعمل الشيطان، قال تعالى: ﴿**وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا**﴾ [الإسراء: 26- 27] وقال أيضا: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم**﴾ [البقرة: 268].

فالشيطان يثبط الإنسان عن الإنفاق في سبيل الله ويخوفه من الفقر ويأمر بالفحشاء التي هي شدود عن الحق وزيغ عن الفطرة السوية.

روي عن وهب بن منبه أنه قال: "قال راهب للشيطان وقد بدا له، أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ قال الحدة، إن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة"[1]، إلا أن أهم مداخل الشيطان على الإطلاق هي الكبر والإعجاب بالنفس والاستهانة بالذنوب، فهذه الأخلاق هي أصل غواية إبليس نفسه وانحراف المنحرفين من بعده، فقد منعه الكبر والإعجاب بالنفس أن يسجد لآدم، واستهان بعصيان أمر الله تعالى.

جاء في حديث عبد الرحمن بن زياد رضي الله عنه أن موسى عليه السلام سأل إبليس فقال: فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه؟ قال إذا أعجبته نفسه، واستكثر عمله ونسي ذنوبه[2].

ومن مداخله أيضا أن يستدرج الإنسان في خطوات متتالية إلى المحظور فيزين له فعل المفضول من الأعمال وترك الأفضل كما ينقله من فعل المكروه إلى المحرم، قال تعالى: ﴿**يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من**

---

1. تلبيس إبليس، ابن الجوزي، ص: 31.
2. نفسه، ص: 30- 31.
وانظر الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ج، 20 ص: 180.

يشاء﴾ [النور: 21].

فالإيمان بما للشيطان من خواص وقدرات، تجعله متلبسا بذات كل آدمي، وحاضرا بوسوسته وتسويله وإملائه في الفكر والإحساس ووظائف الأعضاء كلها، حتى لا يكاد المرء يميز بين ما هو صادر عن ذاته وما هو آت من قبل الشيطان. هذا الإيمان يقتضي من الإنسان منتهى اليقظة وأقصى ما يمكن من الوعي والإحساس بالخطر الشديد الذي ينتج عن التحام العدو بالنفس، والانطلاق في حربه ومكره وكيده من أعماق القلب الذي هو لب الإنسان المتحكم في كل ذاته، ومصدر الصلاح والفساد والاستقامة والانحراف، ومنشأ الإرادات والنيات والتوجهات العملية والسلوكية.

إن إدراك المرء لموقع الشيطان العدو في ذاته، وتقدير طاقاته الكبيرة في التلبيس والإغواء والتضليل، التي يتأتى له بها مواجهة الإنسان في مكونات ذاته نفسها، وبتوظيف ما زودت به من وسائل الدفاع والثبات وطاقاتها الروحية والبدنية المختلفة، يفرض كل هذا على الإنسان أن يلتزم بمستلزمات هذا الإيمان العملية، وان تزيد حيطته، ويتواصل تمحيصه لكل ما يجيش في نفسه، وما يخطر على باله، وما تراه عينه وما تسمعه أذنه وما ينطق به لسانه، وأن يعرضه على شرع الله المعصوم، وسنة رسوله الثابتة برغبة متحررة من الهوى، متجردة في طلب الحق، متجهة للعمل على هديه.

ثالثا: مسؤولية الإنسان عن الاستجابة لغواية الشيطان

رغم ما أوتي الشيطان من قدرة على الغواية والوسوسة في صدور الآدميين فإن أثر ذلك يظل مشروطا بإرادة الإنسان وانصياعه لإيحاءات إبليس، واستجابته لإغراءاته والرضى بها.

ولقد أوضح الشرع هذه الحقيقة إيضاحا تاما بحصر مهمة الشيطان التضليلية في دائرة محدودة، كالوسوسة:

وهي الدعاء لطاعته بكلام خفي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت، بحيث

يتوقف أثرها على موقف الإنسان، ومدى ميله لمضمونها، وفي مجرد التسويل والتزيين، قال تعالى: ﴿**إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم**﴾ [محمد: 26- 27].

فالملاحظ في هذا النص تقدم الارتداد عن الدين بعد الهدى والإيمان عن تدخل الشيطان، بأن زين لهم تراجعهم عن الحق وميلهم إلى الباطل بطاعة أهله، وهكذا الشأن في حالات التضليل الشيطاني، الذي غالبا ما يعرضه القرآن الكريم تابعا لاستعداد أولي في المضللين، قال تعالى: ﴿**ولولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون**﴾ [الأنعام: 43]. فهؤلاء لما تركوا الصبر حين البأس والتضرع إلى الله وقست قلوبهم فلم تمتثل أمر الله تعالى. لم يكن بمقدورها أن تنكر تزيين الشيطان لعملها، لأنه يجري وفق مرادها واختيارها ولأنها أوقعت نفسها تحت تأثيره، من حيث تعلم ذلك أولا تعلمه، وقال تعالى: ﴿**تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم**﴾ [النحل: 63].

فتزيين إبليس إنما يقع لأعمال الناس المنحرفة عن دين رب العالمين على امتداد الوجود البشري، التي ارتضوها لأنفسهم وصحت نسبتها إليهم.

ومن تزيين الشيطان أن يعد ويمني أولياءه ويغريهم بطول العمر والمزيد من المتاع الدنيوي، الذي تتطلع إليه وحده قلوب الجاحدين ليوم الدين، الناكبين عن الشرع الحكيم، قال تعالى: ﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا إن عبادي ليس لك عليهم سلطانا وكفى بربك وكيلا**﴾ [الإسراء: 63 - 64 - 65]

ففي هذه الآيات يقرر المولى تعالى أن الشيطان يغوي من اتبع طريقه بمحض إرادته، وبعضا من الذين يستطيع أن يستنزفهم بصوته وجنوده، ويؤثر فيهم بوعوده وغروره، أما عباد الله الصادقين المخلصين لله فلا سلطان له عليهم البتة.

وتتوضح هذه الحقيقة بجلاء شديد في قوله تعالى: ﴿**قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد**﴾ [ق: 27]. فعن المقصود بالقرين، قال ابن عباس رضي الله عنه ومجاهد وقتادة وغيرهم: "هو الشيطان الذي وكل به" أي الإنسان الذي وافى القيامة كافرا فيتبرأ منه شيطانه فينفي أن يكون هو الذي أطغاه، ويرجع سبب طغيانه إلى ما كان عليه الآدمي نفسه من ضلال بعيد[1].

فالإنسان هو المسؤول الأول عما يقع فيه من ضلال وطغيان، يتأكد ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿**كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين**﴾ [الحشر: 16]، فمما يستوقف المطالع لهذه الآية أن الشيطان بعد أن يحمل الإنسان على فعل القبيح، يعود لتوه فيتبرأ منه، ويؤكد له خوفه من الله، مع أنه لا يقصد بذلك التوبة من عمله، بحيث إن في سلوك الشيطان هذا إثبات لمسؤولية الإنسان الذي قد يصر على المعصية ويستميت في العماية، وهذا التبرؤ الصادر من إبليس يقع في الدنيا بطريقة محسوسة، إذ ما من مذنب يجد في نفسه حماسا لارتكاب الجرم إلا ويشعر غالبا بعد الانتهاء منه مباشرة بالندم، ووخز الضمير، لأن إبليس عندئذ يوقف تحريضه وتزيينه ويتبرأ من المغرر به، فإما أن تؤدي هذه الحالة بالإنسان إلى إعلان التوبة الصادقة، أو أنها تستمر إلى حين ثم يعود بعدها إلى اقتراف نفس المخالفة من جديد. كما أن هذا التبرؤ المشفوع بتحميل المخطئين مسؤولية أوزارهم من قبل الشيطان يتم يوم القيامة، بعد الإيقاع بهم في نار جهنم، ﴿**وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان**

1. انظر تفسير ابن كثير، ج 4، ص: 227.

لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾ [إبراهيم:22].

فارتباط سلطان الشيطان على الإنسان بما في نفسه من إرادة العصيان والفسوق والفجور واستحسان المناكر والآثام، وإيمان الإنسان باتساع قدرة الشيطان على الإضلال، وتعدد وسائل كيده، وتأثيره في الفكر والسلوك كل ذلك يدفع الإنسان إلى لزوم الحذر وإحكام المراقبة على النفس كي لا ترضخ لما يعرضه عليها الشيطان من غرور الخطايا وخداعها الزائف، أو تستدرج إلى استحباب الخبائث، ومقارفة الفواحش ما ظهر منها وما بطن.